

## الضرب

هل أدمتتم ضرب طفلكم؟ لن أخاطبكم من على منبر تربوي وأدعي أنني لم أضرب «آدم» أبداً! خلال سنوات الماضية فقدت أعصابي عدة مرات! المرة الأولى كان عمره ثلاث سنوات إلا بضعة أشهر، كنت قد نهيتته عن نزول منحدر ما لأنه خطر، ولم يسمع الكلام، ووقع ونزفت شفته وجرح ركبتيه! لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ فيه أمام أهلي والمارة، وبدلاً من أن أمسح الدماء بمنديل مبلل، فتحت زجاجة مياه كانت في يدي ورششته بكل محتوياتها!

وقتها راسلت موجهتي، وحكيت لها تصرفي بكل التفاصيل المشينة، وطلبت منها النصيحة حتى لا أكرر تصرفي هذا! لم تعنفني ولم تشعرني بالحقارة! احتوتني وشرحت لي أسباب الأزمة! لقد أخطأت أولاً حينما توقعت من طفل أقل من ثلاث سنوات الطاعة! ثانياً، لقد أخطأت حينما لم أتفهم مدى قوة رغبة طفلي في التجربة! ثالثاً، لقد أخطأت حينما أهملت دوري الأساسي في حياة طفلي: تشجيعه وحمايته! قالت لي: «في المرة القادمة اذهبي معه وأمسكي يده واضحكي معه وأنتما تنزلان المنحدر!»

المرّة الثانية التي سبقت يدي فيها لساني، كان عمر «آدم» ثلاث سنوات ونصف! هل تصدقوني إذا قلت لكم إنني أعتذر له حتى اليوم! لن أحصي عدد المرات التي اعتذرت فيها! لقد صفعته! في يوم أسود مليء بالضغوط والمنغصات فقدت هدوئي وسكينتي، وصفعته! كانت يدي أسرع من لساني! تركت أصابعي علامات القسوة والغضب على وجهه الجميل ووقفت مذهولة أمامه! لأول مرة يجري «آدم» ويحتبني مني! لأول مرة لا يحتبني في حضني! كلما سألت قريب أو غريب عما بوجهه قال ماما ضبضب «آدم!» كان أمامي خياران، أزيد الطين بلة وأجبره على الكذب أو أتقبل نتيجة فعلتي في أسف!

لقد علمني هذا الموقف أصول الاعتذار لطفلي! اعتذرت له كما لم أعتذر في حياتي قط! أدركت أن خلايا عقلي محملة بذكريات العنف، واليوم يتم إعادة تدويرها ويتلقى نتاجها ابني! ليست هذه الوعود التي وعدتها له!

للأسف على مر السنوات، تكررت الحوادث! اختلفت الأسباب وتكررت حوادث «فقد الأعصاب» والتخلي عن المنطق! أكتب هذا الكلام لأذكر نفسي بأخطائي ولأطمئنكم أننا بشر قد نصيب وقد نخطئ. أكتب هذا الكلام لأوضح أن الحوادث سوف تحدث، ولكن المهم أن نحاول أن نتجنب أسبابها وأن نعتذر بعدها، وألا يصبح العنف ضد الطفل نهجاً وأسلوب حياة لنا!

نهت د. «ماريا مونتيسوري» تماماً عن ضرب الطفل على يده، لا على ظهرها ولا في بطنها! قالت إن يد الطفل هي أداة الاستكشاف الأولى والأساسية للطفل، وأنها متصلة بعقله وبشغفه للمعرفة، ضرب هذه الأداة يرسل إشارات سلبية للمخ مفادها أن الفضول سيئ وأن الشغف يؤدي إلى العقاب، ومع التكرار يتحول الطفل إلى كائن غير مهتم بأي شيء ولا يريد أن يعرف أي شيء.

#### الدروس المستفادة:

- إذا اعتادت أيديكم أن تسبق ألسنتكم، مع الوقت سيتحول ضرب الطفل إلى عادة، وهذا لن يعلمه سوى العند والتبذل والعنف المتبادل.
- مسؤوليتكم هي تأمين طفلكم خلال محاولاته للاستكشاف وليس منعه من الاستكشاف.

- قبل أن تطلبوا من طفلكم التحكم في تصرفاته وكلامه، عليكم أن تتحكموا أنتم في كلامكم وانفعالاتكم وأيديكم.
- كثرة الضرب تؤدي إلى التبلد وكثرة التعنيف تفقد الطفل ثقته في نفسه.
- في يوم ما، قد تفقدون مهاراتهم، وقد تفقدون قدرتكم على فعل أشياء كثيرة بحكم المرض أو تقدم العمر، وسوف يرد عليكم شخص ما \_ قد يكون طفلكم أو شخصاً آخر\_ هل تحبون أن يضربكم كلما أسقطتم طبقاً أو كسرتهم كوباً أو وقع منكم طعامكم؟ هل تحبون أن يضربكم أحد لمجرد أنكم أضعف منه؟

عن السيطرة على النفس أتحدث

أرسلت لي أم سؤالاً من أصعب الأسئلة بالنسبة إلي، سألتني: كيف أتحكم في أعصابي؟ كيف أمنع نفسي من ضرب ابنتي؟ أحتاج إلى مساعدة! اليوم ضربت ابنتي بمنتهى العنف ومنتهى القسوة ولم يوقني بكأؤها ولا وعودها ولا توسلاتها! لقد ضربت ابنتي ذات الثلاثة أعوام وأحدثت بها إصابات من شدة الضرب! ماذا أفعل؟

من السهل اعتلاء المنبر وإدانة تصرف هذه الأم، ومن الممتع مهاجمتها وإهانتها وإذلالها! من السهل ادعاء المثالية، ومن السهل تمثيل دور الأم المثالية، لكنني لم أختار الطريق السهل! أنا أعرف الغضب حق معرفة وأعرف شيطان الغضب وأعرف تلك اللحظة الفاصلة بين التحكم والانفجار!

لن أستخدم أيّاً من قراءاتي في مجال التربية بالترابط والمونتيسوري في الرد على هذه الأم. إليكم نصائحي كأّم تحاول جاهدة كل يوم ألا تخطئ:

أولاً: تعرفي على لحظة الانفجار! تلك اللحظة التي يغيب بعدها العقل وتتحول اليد إلى أداة خارج سيطرتك. واجبك هنا هو الابتعاد عن ابنتك عندما تدركين اقتراب هذه اللحظة! ادخلي الحمام! اخرجي البلكونة! ادخلي حجرتك! ابتعدي حرفياً عن ابنتك!

ثانياً: المكنتسة الكهربائية! هذه منقذتي! قبل لحظة انفجاري، أجري على مكنتستي الكهربائية وأبدأ في الكنس! أكنس وأصرخ حتى تهدأ ثورتني!

ثالثاً: المنفضة! يجب أن يكون في كل بيت منفضة! اجري على منفضتك وانفضي بكل قوتك جميع الأسيرة والكنب والوسائد!

رابعاً: الكيس الورقي! تعلمت هذا التكنيك في الطائرات! إذا شعر أحد الركاب بنوبة دعر، تأتي له المضيفة بكيس ورقي ينفخ فيه! انفخي كيسك الورقي حتى تنهمر دموعك!

خامساً: الفريزر! إذا شعرت بدمك يفور ويغلي، اجري على الفريزر وافتحي بابه وضعي رأسك بداخله وتنفسي حتى يعود تنفسك لطبيعته.

أنا أعرف أن نصائحني قد تبدو غريبة وقد تبدو مضحكة وقد تبدو مجنونة ولكنها جميعها تعمل!

كلنا نتعرض لضغوط مرعبة! ضغوط عاطفية وضغوط مالية وضغوط حياتية وضغوط صحية! كلنا على وشك الانهيار أو الانفجار! ولكن للأسف دائماً تأتي لحظة الانفجار في وجه من لا حول لهم ولا قوة! ننفجر فيمن يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم! مع كل انفجار نترك وراءنا حطاماً بشرياً ومهما الملمنا الأجزاء والأشلاء فسوف دائماً تبقى ذكرى الانفجار مروعة!

مع الوقت، سوف تعرف ابنتك أعراض نوبة الغضب قبل أن تحدث، ومع الوقت سوف تتعلم ألا تدفعك دفعاً إلى الهاوية، ومع الوقت سوف تكتشفين سحر المكنسة وجمال المنفضة وأهمية الكيس الورقي وتأثير الفريز العظيم.

مع الوقت سوف تتعلمين أن تطلبي من ابنتك أن تساعدك ألا تغضبي وألا تحزني وألا تثوري وألا تنفجري! مع الوقت ستعلمين ضبط النفس وإعادة توجيه الغضب!